المحاضرة السابعة: نظريات اجتماعية مبكرة حول الظاهرة الفنية

- **أهداف المحاضرة 07**
- **الكشف عن المقاربات النظرية للظاهرة الفنية**
- **معرفة أهم النظريات المبكرة للفن**

الفن كأحد نتاجات الأفراد التي تعكس أوجه الحياة الاجتماعية ومراحل تطورها، فقد تم استخدامها من قبل علماء الاجتماع الرواد كمادة معرفية لدراسة التطور الاجتماعي والفكري والذوقي لهم، لذا فهي إحدى الظواهر الاجتماعية السائدة في المجتمع وليس أحد مشكلاته، لم تقف حجر عثرة في تقدمه.

ولما كان علم الاجتماع يدرس الظواهر الاجتماعية (والفن أحدها) فقد تناوله، إلا أنه لم يوليه اهتماما متكافئا أو متساويا مثلما أعطى تركيزه وولعه وغبطته وشغفه للمشكلات الاجتماعية الدائرة في المجتمع مثل الجريمة والجنوح والانحراف والطلاق والإدمان على المسكرات والمخدرات وذلك راجع إلي كونه لا يهدد معايير وقيم المجتمع ولم يعمل على تحلله أو تقويضه، بل كان شاهد عيان على تغيره وتطوره مع ذلك فقط ظهرت إرهاصات نظرية في أدبيات رواد علم الاجتماع، بيد أنها لم تكن متكاملة منذ البداية ولم يتم اختبارها من قبل علماء اجتماع جاءوا بعد الرواد، بل تركت سائبة فلم تظهر نظريات اجتماعية متخصصة في الفن مثل ما موجود من نظريات في علم اجتماع التربية و الجريمة والجنوح والتحضر والأسرة وسواها.

ولم تظهر نظريات قريبة المدى (التي تدرس السلوك الإنساني والحالات الفردية والشللية في المجال الفني) بل بعيدة المدى أوضحت مراحل تطور الفن – بكافة ألوانه – عبر الزمن مستخدمين المنهج التاريخي في صياغة نظرياتهم.

أما لماذا أدرجنا هذه النظريات في هذا الحقل المعرفي (علم اجتماع الفن) فإن ذلك يرجع إلى وظائفها المتمثلة في:

- تحفيز الباحثين في استخدام مؤشرات ودلائل نظرية لدراسة الظواهر والحركات الفنية المعاصرة.
- إثراء البحوث من خلال إرهاصاتها المستقبلية.

– ربط الإنتاج الفني بالإطار النظري وعدم تركه سائبا أولا، ولرفد المنطلقات النظرية

بمستجدات الحياة المعاصرة وما تفرزه من نتاج فني ثانيا.

– تفسر لنا المراحل التطورية التي مر منها وبها الفن وتكشف لنا عن مواطن ضعفه وقوته.

بعد هذه الإطلالة النظرية نذهب لطرح بعض المنظرين وما قدموه لنا في المجال الفني، سوف نكتفي بذكر ما طرحه ابن خلدون كنموذج للنظريات المبكر حول الظاهرة الفنية.

– **نظرية ابن خلدون (1406 —1332 م):** يرى ابن خلدون الإبداع الفني صفة مكتسبة وليست موروثة عند الفنان إذ قال في هذا الخصوص "والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته على نسبة الأصل، تكون الملكة ونقل المعاينة أو عبْء وأتم من نقل الخبر والعلم. ثم وضع ابن خلدون شروطا تهيئ للفنان وضعا نفسيا وجسديا تؤهله لتقديم إبداعه الفني وهي ما يلي:

– قناعته بموضوع عمله الفني.

– تعلقه النفسي بموضوع عمله الفني.

– أن تكون قريحته متنشطة بلذة سارة.

– بعد نهوضه من نوم مريح.

– فراغ معدته من الطعام.

– جمال مكان عمله.

– الخلوة: حيث ذكر ما يلي: "لا بد من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والأزهار وكذا المسموع لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ السرور، ثم مع هذا كله شرط أن يكون على جمام ونشاط فذلك أجمع له وأنشط للقريحة... وخير الأوقات لذلك أوقات البكر عند الهبوب من النوم، وفراغ المعدة، ونشاط الفكر وفي هؤلاء الجمام وربما قالوا: إن من بواعثه العشق والانتشاء.

والملفت للانتباه أن أبن خلدون يرى أن النسق الفني لا يستطيع أن يستقبل بذاته داخل البناء الاجتماعي عن باقي الأنساق الأخرى إلا إذا استغنى صاحب الدولة (الحاكم) عن النسق العسكري كنسق معزز ومدعم للنسق السياسي وهذا لا يحصل إلا بعد أن يثبت الحاكم أقدامه في أنساق البناء الاجتماعي، أو في حالة ضعفه في سلطته أي في نهاية حكمه، عندئذ يعتمد اعتمادا كاملا على النسق العسكري ويجعل من النسق الفني خادما له ومنفذا لأهدافه السياسية

والعسكرية وليس الفنية.

لكن في المرحلة المتوسطة والتي يسميها ابن خلدون وسط الدولة، عندئذ يقوم الحاكم بالاستغناء – نسبيا عن النسق العسكري بعد أن قام هذا النسق – بتمهيد أمره وتثبيت أركانه في البناء الاجتماعي، ساعتئذ، تصبح حاجة الحاكم إلي المباهاة أمام الدول الأخرى بثمرات ملكه وتكون مراتب الفنانين عالية ومتميزة على السلم (التدرج) الاجتماعي ويكونوا من أصحاب الثروة والنغمة ومقربين من رجال السلطة ومجالسهم لأنهم (الفنانين) بيتوا آلته التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكة والمباهاة بأحواله وتثقيف أطرافه.

فقد قال في هذا الخصوص "أعلم أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة، يستعين بها على أمره إلا أن الحاجة في أول الأمر إلى السيف مادام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة إلى القلم، لأن القلم في تلك الحالة خادم فقط، منفذ للحكم السلطاني، والسيف شريك في عصبيتها... فتحتاج إلى الاستظهار بأرباب المعونة، وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف السيوف وتقوي الحاجة إليهم في حماية الدولة، والمدافعة عنها كما كان الشأن في أول الأمر في تمهيدها، فيكون للسيف مزية على القلم في الحالتين ويكون أرباب السيف حينئذ أوسع جاها وأكثر نعمة وأسنى إقطاعا.

فيما بين هاتين المرحلتين أو ما أسماه (ابن خلدون)، وسط الدولة يستغني عن السيف ليحل القلم مكانه حيث يكون الاستقرار قد حل محل الحروب والاضطرابات ولتنتقل الدولة هنا إلى مرحلة جديدة حيث قال "وأما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف لأنه قد تمهد أمره ولم يبق همه إلا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الأحكام.

والقلم هو المعين له في ذلك، فتعظم الحاجة إلى تصريفه وتكون السيوف مهملة في مضاجع أغمادها، إلا إذا أنابت نائبة أو دعيت إلى سد فرجه وما سوى ذلك فلا حاجة إليها، فتكون أرباب القلم في هذه الحاجة أوسع جاها وأعلى رتبة وأعظم نعمة وثروة وأقرب من السلطان مجلسا وأكثر إليه ترددا وفي خلواته نجيا، لأنه حينئذ آلته التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه، والنظر إلى أعطافه، وتثقيف أطرافه والمباهاة بأحواله".

إن سياق الحديث عن نظرية –ابن خلدون– في الفن قد ميز بين نوعين رئيسيين من

الفنون، الأولى سماها بالفنون الكمالية والثانية بالفنون الضرورية.

تظهر الأولى من خلال اكتفاء دواعي الحياة الصحراوية بالضروريات اللازمة للعيش في المحيط الصحراوي الذي لا يستلزم ولا يتطلب جودة في الصناعة الفنية، وما موجود منها في الحياة البدوية تكون مقصودة لغيرها (أي تخدم وتساد وسائل عيش غير فنية صرفة) وليس لذاتها.

بتعبير بنائي وظيفي حسب منطلق علم الاجتماع، تكون الحاجة الاجتماعية للصناعة الفنية في المجتمع البدوي غير مستلزمة الدقة والأناقة في صناعتها لأنها غير مطلوبة بإلحاح واستمرار، بل حسب الظروف التي تفرزها أنساق البناء الاجتماعي النشيطة والحيوية وبالذات النسق المحوري مثل النسق القبلي – العشائري، من أجل خدمة أهدافه وغاياته وأغراضه وحاجاته.

وإزاء ذلك تكون الصناعة الفنية في هذا المجان الاجتماعي ممثلة للكمالية وليس الضرورية.

بينما تتطلب دواعي الحياة المدنية – الحضرية (المتصفة بالترف وتكاثر الصنائع والفنون والألوان) الدقة والأناقة والجودة في صناعتها وفنها لأنها مقصودة لذاتها وليس لغيرها.

نقول أوجدتها حاجات الأنساق البنائية المتكافلة وظيفيا مثل تكافل النسق الاقتصادي مع السياسي والاجتماعي والتربوي، على الرغم من استقلالها ويكون لكل نسق حاجاته الفنية الخاصة بالنسق الاقتصادي مثل فن الدعاية والإعلان التي لا تكن نفس الحاجات الفنية الخاصة بالنسق الثقافي أو التربوي بل متباينة معها، وإزاء هذه الوضعية الاجتماعية فإنها تمثل حاجات فنية ضرورية وليست كمالية.

وقد وجدنا هذه الرؤية في قوله الآتي "والسبب في ذلك أن الناس ما لم تستوف العمران الحضري وتتمدن المدينة، إنما همهم في الضروري من المعاش وهو تحصيل القوات من الحنطة وغيرها، فإذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه، صرف الزائد حينئذ إلي الكمالات من المعاش، ثم إن الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات، والقوات له من حيث الحيوانية والغذائية، فهو مقدم لضروريته على العلوم والصنائع وهي متأخرة عن الضروري، وعلى مقدار عمران البلد تكون جدة الصنائع للتأنق

فيها حينئذ واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة، أما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائعي إلا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات من نجار أو حداد أو خياط أو حائك أو جزار.

وإذا وجدت هذه فلا توجد فيه كاملة ولا مستجدة وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة إذ هي كلها وسائل إلى غيرها وليست مقصورة لذاتها.

وإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات، كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخري معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله، من جزار ودباغ وصائغ وأمثال ذلك، وقد تنتهي هذه الأصناف إذا استبحر العمران إلى أن يوجد منها كثير من الكمالات والتأنق فيها في الغاية وتكون من وجوه المعاش لمنتحلها، بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال لما يدعو إليه الترف في المدينة". (مثل رائعة "ضريح تاج محل" و ما أبدع فيه المهندسون من إبداع).

ويشير ابن خلدون إلى الوظائف الاجتماعية للفن من خلال ما يلي :

– **تزجية الوقت بصورة نافعة لملى أوقات الفراغ** على نحو يدخل السرور والمتعة إلى القلب وفي ذلك يقول في أثناء حديثه عن صناعة الغناء "تحدث هذه الصناعة لأنه لا يستدعيها إلا

من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره، فلا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم تفننا في مذاهب الملذات.

– **زيادة الترف والمتعة:** فالمرء لا يكتفي بالبحث عن المتعة بل أنه يطلب منا الزيادة دائما ويتفنن في طلبها وزيادتها على أن ذلك مرتبط بتطور العمران وتوفر الرخاء إلى حد ما لأن الإغراق في البداوة يقصى الناس من طلب الفن ويحجبهم عنه لأنهم في شغل عنه فيما هو أهم وهو طلب الحاجات الضرورية (وإذا زخر بحر العمران وطلبت في الكمالات كان في جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله).

– **اللهو واللعب:** إذ قال "وأمعنوا في اللهو واللعب واتخذت آلات الرقص في الملبس والقضبان والشحار التي يترنم بها عليه وجعل صنفا وحده واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرج وهي تماثيل مسرحية من الخشب معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويثاقفون وأمثال ذلك من اللعب المعد للولائم والأعراس وأيام العيد ومجالس الفراغ واللهو".

– **إكساء العقل وإغناء التجربة:** إذ قال "إن النفس الناطقة للإنسان إنما توجد فيه بالقوة وإن خروجها من القوة إلى الفعل إنما بتجدد العلوم والإدراك عن المحسوسات أولا ثم روحانية، ويستكمل حينئذ وجودها فوجب لذلك أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيدها عقلا فريدا".